

الحفاظ على عالم الثقافة والأدب الترانس الشفوي والمكتوب



أدلة التفكير في الماضي

في الممارسات العربية وروح الخليج

بقلم : ديل إف. إكلمان

من الملائم جداً أن يقرن افتتاح مركز الشيخ زايد بإقامة ندوة دولية . فخلال العقدين الأخيرين، ظهر اهتمام كبير بالتراث والماضي عموماً وتنامي الوعي بأهميتهما والملاحظ أن فكرة التاريخ والموروث الثقافي المتجسدة في جهد خاص للحفاظ عليهما في الذاكرة الجماعية والأرشفات والأماكن، قد أحدث دلالة خاصة في الخليج العربي الذي يعرف نمواً اقتصادياً سريعاً ومستمراً .



فلنفكر قليلاً في مدى الصعوبة التي يواجهها واحد من الجيل القديم في وصف الأحداث التي عايشها أفراد جيله في الفترة المبكرة من حياتهم . إن الملاحظ في كثير من الحالات، أن الأماكن التي يحيلون إليها أصبحت مجرد ذكرى، أو أن بعض مظاهر التراث التي كانت ذات قيمة في الماضي أمست اليوم محرفة بشكل كبير .



ومن الجائز أن تستمر الحكايات والقصص المروية من الماضي في التداول في الوقت الراهن، لكن الأمكنة التي تحيل إليها لا توجد إلا في المخيلة الجماعية .

نعتقد أن مقارنة مظهر واحد مع ما عرفته أوروبا من تغيرات من شأنه أن يساعدنا على فهم التحولات العميقة في هذه المنطقة . إذ بمجرد مرور فترة قصيرة على تعميم التعليم في إنجلترا خلال الستينات من القرن الماضي، بدأ الناس ينظرون إلى أمكنة عيشهم بطرق مختلفة . فالتراث الشفوي سرعان ما بدأ يختفي من الشعور الشعبي تاركاً وراءه "فلكلوراً" أصبح من الضروري اللجوء إلى المختصين للحفاظ عليه .

وبالمثل كانت إحداث لجنة تينيسي فالي Tennessee Valley Authority في الولايات المتحدة سنة ١٩٣٣ - التي قال أحد المختصين في الفلكلور عن أعمالها بأنها "أكثر جهود التخطيط مثالية وشمولية التي تمت محاولتها في الولايات المتحدة"^(١) - والتي لم تغير المشهد الطبيعي وحسب لكن أدخلت أيضاً تغييرات واسعة على البنية التحتية بما حملته من كهرباء وتنمية مست أكثر الأودية بعداً وعزلة . فسرعان ما عوض التعليم المعرفة التي كانت متجذرة لدى الجيل السابق بصور أكثر توحيداً يشترك فيها كل فرد من أفراد الأمة . وقد أدت وسائل الاتصال على نحو مماثل - التي بدأت بجهاز الراديو في مرحلة مبكرة، ثم بجهاز التلفاز في مرحلة لاحقة . وانتهت اليوم إلى أشكال إلكترونية متعددة للترفيه والاتصال - إلى تغيير الكثير من معالم الأمكنة أو القضاء عليها .

وبالنظر لهذه التغيرات فليس مستغرباً أن نرى كثيراً من مواطني هذه المناطق يعملون على إنشاء مراكز للحفاظ على التاريخ والتراث . وفي بعض الدول، مثل سلطنة عمان فإن مصطلح "متحف" يخصص عادة للهياكل الرسمية، فإن المبادرات الخاصة مثل المبادرة الرائعة المتمثلة في "بيت الزبير" الذي افتتح في مسقط في ١٦ فبراير من سنة ١٩٩٨م، تنقصه التسمية الشكلية رغم أن أنشطته المتعلقة بجمع القطع الأثرية والمحافظة عليها وعرضها، تجعل بيت الزبير في الواقع يقوم بمهام المتحف . أضف إلى ذلك، أن التمويل الخاص لهذا البيت يدل على الجهود المحمودة لتلك الأسرة المرموقة التي تبذلها لصالح الجماعة - معظم الأشياء المعروضة هي في ملك أسرة الزبير . وتعتبر الجهود التي يبذلها علي أحمد الشحري بصلالة في سبيل الحفاظ على نقوش كهف منطقة الجبل مثلاً آخر على هذا النوع من المبادرات الخاصة^(٢) . والبعض من هذه المبادرات ممول من قبل جامعي القطع الأثرية وعارضيه أنفسهم، في حين تعتمد مبادرات أخرى على الرعاية من بعض الجهات . وفي الحالتين معاً، تدل هذه الجهود على الرغبة المتنامية في الحفاظ على التاريخ المحلي وربط الصلة بالتيارات الحضارية على نطاق واسع .

ازدهر هذا النوع من المبادرات في الإمارات العربية في السنوات الأخيرة . فقد تميزت الندوة التي عقدت سنة ١٩٩٦ حول "كتابات الرحالة والمستكشفين" المتعلقة بالجزيرة العربية برعاية مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، بتظاهرة رائعة تمثلت في عرض مجموعات من الكتب والأشياء التاريخية المتعلقة بالرحلة من قبل جامعين آخرين

للتحف الأثرية مستقرين بمنطقة الخليج^(٣) . وتدل الرعاية المشتركة لندوة الرحلة بين مركز الماجد والمؤسسات العمومية، بما فيها جامعة الإمارات، على التكامل بين المؤسسات العمومية والخصوصية . وقد كان جامعو التحف والراعون للندوة حاضرين كذلك تبدو على محياهم بهجة واضحة مصدرها اهتمام العموم بنشاطهم .

تتضمن "الثقافة" المظهر المادي للثقافة والفنون الاستعراضية المحلية، والتقاليد "الصغيرة" أو التواريخ القبلية الشفوية وعلاقتها بالتيارات الكبرى للتاريخ والعلوم الإسلامية . كما يمكن أن تتضمن كذلك بعض الطرق، التي غالباً ما لا ينتبه الناس إليها بأنفسهم، مثل تلك التي يتبعونها في لباسهم وحركاتهم وتحضيرهم للأكل واشتراكهم فيه، وكذا الموروث الشفوي والشعر المكتوب . وفيما يخص الإمارات العربية، فإن الدراسة التي قامت بها عائدة كنفاني منذ عشرين سنة ونيف توحى بالشكل الذي يمكن أن تتخذه دراسة ما هو ضمنى ومسلم به فيما يخص أشكال الطعام والطقوس الجسدية وبالكيفية التي ترتبط بها بأفكار الفرد وكرم الضيافة^(٤) . أما كتابها الأخير (الحاصل على جائزة) المتعلق بالأشكال التقليدية لتحضير الطعام وتصديره في لبنان، فيوحي أيضاً بالشكل الذي يمكن أن تتخذه دراسة شاملة عن الطعام، كثقافة مادية وكجزء من تجربة اجتماعية أوسع^(٥) .

سيقوم مركز الشيخ زايد بدور وسيط ثقافي "استراتيجي"^(٦) . ويوضح الأمر أيضاً ريتشارد كورين، مدير قسم الفولكلور والحياة الشعبية بمؤسسة سميثسونيان، بأن وسطاء من هذا القبيل يتناولون الرموز ويبسطون الواقع لجعله صورياً مجردة يعيدون ترتيبها ويتلاعبون

بها ويقومون بتجريبها وينقلونها للآخرين ثم يعيدونها إلى الواقع الذي كانت عليه .

يكون على الوسطاء الثقافيين أن يعملوا مع عامة الناس . إذ يتعين عليهم بالفعل أن يخلقوا جمهوراً، وليس مجرد جمهور من نوع النخبة . فتمثلهم للماضي يحمل قوة موحية تثبت وتشكل أفكار الشعوب والأمم، واللغات والفنون والهويات الفردية والجماعية . كما أنهم يتواصلون مع جمهور من مشارب مختلفة^(٧) . ويتعين عليهم أيضاً أن ينقلوا صورة إيجابية لجمهورهم وللراعين لهم .

ولإعطاء فكرة عن التعقيدات التي تتضمنها هذه المهام، أشير هنا إلى حادث أستقيهِ من البحث الميداني الذي قمت به سنة ١٩٨٠ . فقد وصلت في أواسط سنة ١٩٧٩م إلى حمرا العبريين بسلطنة عمان من أجل القيام ببحث لمدة سنتين . ومنذ وصولي إلى هناك سمعت من كثير من الناس عن مخطوط يتناول تاريخ العبريين من تأليف الشيخ إبراهيم سعيد العبري (الذي توفي سنة ١٩٧٥) الذي عين مفتياً في سنة ١٩٧٠ كأول مفتٍ لسلطنة عمان .

وقد قيل لي أن المخطوط "كتاب تبصرة المعتبرين في تاريخ العبريين" يتناول تاريخ العبريين لفترة تمتد أربعمئة سنة، بما فيها الأحداث التي عرفها تاريخهم إلى حين الفراغ من تحرير الكتاب سنة ١٩٥٩^(٨) . أما رؤية المخطوط والاطلاع عليه فقد تعذر ذلك عليّ وعلى الآخرين . وفي ذلك الحين، كنت محتاراً ومتسائلاً عن سبب وجود مثل هذا الخلاف حول تدوين التاريخ القبلي أو حول جعل نسخة منه متوفرة للقراءة .

وأخيراً عرفت السبب . ذلك أن ذكريات الماضي لم تكن مستمرة أو ثابتة عند استحضارها . تبدو هذه الحساسية ظاهرة في مخطوط الشيخ إبراهيم ذاته . فكلما اقتربت روايته من الحاضر، أصبحت متشابكة ومعقدة في آن واحد، فهي متشابكة في استكشافها للصلات المعقدة بين العشائر والتحالفات بين القبيلة وبين القبائل، ومعقدة في وصفها للزعماء القبليين والدينيين والأدوار التي قاموا بها في الصراعات داخل قبيلتهم وبينها والقبائل الأخرى . وفي المراحل المتأخرة، تفادى الشيخ إبراهيم الخوض في بعض الموضوعات - بما فيها على سبيل المثال الجهود الأجنبية التي بذلت للتأثير على زعماء القبائل والعلماء في داخل عمان لتغيير مواقفهم في بداية الخمسينات، وكذا انتفاضة ١٩٥٧ ضد حكم السلطنة . حيث كتب بتحفظ ما معناه : "ليست لدي حاجة في أن أقول المزيد عما حدث لاحقاً"^(٩) .

والسبب الذي دفع الشيخ إبراهيم في عدم قول المزيد عما حدث لاحقاً، هو تأكده بأن جمهور قرائه على معرفة بتلك الأحداث وكما هو الشأن في أوروبا قبل دخول المطبعة، فإن فئة من العلماء بعمان هي التي كان بإمكانها الوصول بشكل مباشر إلى المخطوط . وكان مخطوط الشيخ حساساً لجعله موضوع العلاقات بين القبائل وتراثها، الذي يتمتع بمرونة كبيرة، ثابتاً وقاراً على صيغة واحدة . فهو يحدد المسافات بين مختلف التجمعات القبلية ويعطي منظوراً أحادياً للأحداث . وعندما كان المخطوط يتداول بين النخبة القبلية، كان يقرأ أساساً من قبل أنصار موقف معين - مع الإشارة إلى أن كل نسخة منه كان لها مالك خاص ومسار محدد تتداول فيه . لم يكن وصولي إلى المخطوط يشكل

تهديداً مباشراً، غير أن إمكانية نشر الكتاب وأخذه من قبل الأجانب على أساس أنه سلطة حول تمثل العبريين لماضيهم، كان يشكل تحدياً لمفهوم أكثر مرونة حول الهوية القبلية وتقلبات هويات المجموعات القبلية .

وإلى وقت جد قريب، استمر هذا النوع من الانشغالات حاضراً في عمان . ففي سنة ١٩٨٦، عندما أقدمت وزارة الداخلية على نشر دليل عن المعالم التاريخية والأعلام البشرية وأسماء القبائل في السلطنة "المرشد العام للولايات والقبائل في سلطنة عمان" (١٠)، كان عليها أن تسحب الدليل من التداول بسبب الاحتجاجات التي أثّرت من داخل الإدارة ذاتها، التي اعتبر فيها أن الدليل مثل "تمثيلاً خاطئاً" العلاقات بين المجموعات القبلية وعلاقاتها بالأمكنة .

وهذه الحساسية التي يثيرها تحويل التراث الشفوي من صيغته الأصلية إلى أخرى مكتوبة ليس منحصرًا في الخليج العربي بل هي واسعة الانتشار في جهات أخرى حيث تلاقي الروايات المكتوبة عن التراث القبلي احتجاجاً متأصلاً وضيق الأفق وعدائي، على نحو ما أشار إليه عدد من البرلمانيين في الأردن، وما اكتشفه أيضاً أحد الباحثين في الأنثروبولوجيا في محاولته لنشر كتاب عن التاريخ القبلي لهذا البلد . ففي الأردن كما في عمان، يرفض الكثير من رجال القبائل رواية تاريخ قبيلتهم أمام فرق قبلية أخرى بسبب الخلافات والنظرة التي ينظر بها الآخرون إلى تاريخهم والحكم عليه بـ "الكذب" (١١) .

يواجه مركز الشيخ زايد تحدياً كبيراً . ففي عملية المحافظة على التراث وذاكرة الماضي، لا بد وأن يكون فيها أيضاً انتقاء وتمثيل لذلك

الماضي والتراث وإسقاط البعض منه . وبصورة مقصودة أو غير مقصودة، فإن المؤرخين والباحثين الآخرين المتعاونين مع المركز سيعملون على إبراز وعي فئات من الشعب ويحملون إلى الواجهة أماكن وفضاءات وأفكاراً لأسر وتسجيلات لأحداث الماضي^(١٢) . ولعل التحدي الكبير يكمن في جعل الماضي ميسراً وسهل الوصول بالنسبة للجيل الجديد .

دليل إف. إيكلمان

جامعة دارتموث - الولايات المتحدة الأمريكية

الموامش

David E. Whisnant, Modernizing the Mountaineer: People, Power, — ١
and Planning in Appalachia (Knoxville: University of Tennessee
Press. 1994). P. 43.

٢ — أنظر علي أحمد الشحري : "كيف ابتدينا وكيف ارتقينا بالحضارة الإنسانية من
الجزيرة العربية . ظفار، كتابتها ونقوشها القديمة" . (طبعة خاصة) صلالة
١٩٩٤ .

٣ — والواقع أن "مكتبة التراث العربي والإسلامي" التي هي في ملك السيد حسن بن
محمد بن علي آل ثاني من قطر، أقامت عرضاً بالمناسبة . كما كان هناك عرض
لبعض الأشياء التي استعملها شارلز دوتي Charles Doughty أثناء استكشافه
للجزيرة العربية . وقد جمعت المداخلات والعروض في كتاب يحمل عنوان :
"كتابة الرحالة" دبي : مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث .

٤ — Aida S. Kanafani, Aesthetics and Ritual in the United Arab Emirates:
The Anthropology of Food and Personal Adornment among Arabian
Women (Beirut: American University of Beirut. 1983.

٥ — Aida S. Kanafani. Zahar. Mune: La conservation alimentaire
traditionnelle au Liban (Paris: Edition de la Maison des sciences de
l'homme, 1994).

وحتى الموسيقى عرفت بدورها تغيرات متزايدة . حيث يمكن للمرء القيام بمحاولة
المحافظة على الأشكال الموسيقية القديمة عبر التسجيلات أو المعاهد الموسيقية أو
تسجيل محتوى ما يذاع محلياً . ذلك أن التغيير غالباً ما يأتي من "تحت" .
ويترتب عن ذلك أن الفرق الموسيقية التي تحيي الأعراس والحفلات تكون تحت
ضغط متنام لكي تسير الذوق الشعبي السائد . ومن شأن اختيارات الحضور أن

تتضمن أنغاماً محلية وأخرى عالمية، كما يمكن أن تتضمن آلات موسيقية حديثة
تغير من شكل أداء الموسيقيين وتفكيرهم بخصوص عملهم . فيما يتعلق بنقاش ممتاز
لهذه التغيرات في وسط آسيا، أنظر :

Theodore Levin. A Hundred Thousand Fools of God: Musical travels
in Central Asia (Bloomington: Indiana University Press. 1966).

وفيمما يتعلق بنموذج إقليمي عن محاولة للقيام بجدد الأساليب الموسيقية، أنظر :
Issam El-Mallah, Die Musik einer alten Hochkulture: Das Sultanat
Oman. (The Mmusic of an Ancient Civilization: The Sultanate of
Oman). Muscat: Ministry of Information, 1994. (2 volume CD).

٦ - بالنسبة لنقاش ممتاز لمفهوم الوسيط الثقافي، أنظر :

Richard Kurin. Reflections of a Culture Broker: A view from the
Smithsonian (Washington: Smithsonian Institution Press. 1997).
Especially pp. 18-20.

Kurin. Reflections, p. 20

٧ - أنظر :

٨ - إبراهيم سعيد العبري، "كتاب تبصرة المعتبرين في تاريخ العبريين"، مخطوط تم
نسخه سنة ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م من قبل سعيد بن عبد الله بن محمد الداغري بطلب
من الشيخ محمد بن أمير . وقد حصلنا على نسخة مصورة منه بعد الحصول على
الإذن من الشيخ موسى علي العبري . وفيما يخص نقاشاً مستفيضاً لمحتوى مؤلف
الشيخ إبراهيم العبري، أنظر :

Dale F. Eickelman. "Traditional Islamic Learning and Ideas of the
Person in the Twentieth Century," in Middle Eastern Lives: Essays:
on Biography abd Self-Narrative, ed. Martin Kramer (Syracuse:
Syracuse University Press, 1991), pp. 35-59, 147-50.

٩ - العبري : " كتاب تبصرة المعتبرين" ص ١٣٤ .

١٠ - سلطنة عمان، وزارة الداخلية : "المرشد العام للولايات والقبائل بعمان" (مسقط :
وزارة الداخلية، ١٩٨٦) .

Andrew Shryock, Nationalism and the Genealogical Imagination: — ١١
Oral History and Textual Authority in Tribal Jordan (Berkeley and
Los Anglos, University of California Press, 1997), p. 11.

١٢ — فيما يخص دراسة متميزة عن التغير التاريخي للباس المرأة بالمناطق البعيدة
بالمغرب، أنظر :

Amina Aouchar. "Pratiques vestimentaire et mutation sociales en Haute
Moulouya" (Dress and Social Change in the Upper Moulouya).. In
Miroirs maghebines: Itineraire de sol et paysages de rencontre, ed.
Susan Ossman (Paris: CNRS Editions, 1998), pp. 57-75.

فحتى تلك الأمور الدنيوية البسيطة، من قبيل اللباس القبلي المتبع لدى المرأة
والرجل على حد سواء، يمكن أن تصبح ذات دلالات جديدة في الوقت الراهن .
فليس هناك ما يمكن أن نطلق عليه اللباس "التقليدي" للمرأة يكون قاراً وثابتاً عبر
الزمن . فالأفكار عما هو "تقاليد" تتغير بسرعة .